معركتنا في الجزائر
الى خطف المجرم!

بقلم الكاتب الفرنسي الحرّ
كلود بورديه

لا حاجة « بالآداب » الى التذكير بوحدة المعركة العربية في كل جزء من اجزاء الوطن الكبير . وان ضراوة المعركة في مصر لن تنسينا الجزائر المجاهدة التي ابتليت بالاستعمار الفرنسي ، هذا الاستعمار الذي أصبح شعاره الاول : الغدر .

وفيما يلي ترجمة لمقال هام كتبه الصحفي الفرنسي الحرّ كلود بورديه صاحب مجلة « فرانس اوبسرفاتور » في العدد ٣٣٩ ، يتحدث فيه عن خطف الزعماء الجزائريين ، ويلقي اضواء كاشفة على سياسة الغدر والخيانة التي تتبعها حكومة موليه المجرم .

حين انتشر نبأ الخطف الناجح الذي قام به الوزير — المشعوذ في الجزائر ، امتلأت نفوس مواطنينا المرحة ، بضع لحظات ، بالرضى والسرور . ولكن يخشى في الاسابيع القادمة ان تنتهي هذه التجربة التي سحرت الجمهور الى ما تنتهي به ادوار تلاميذ المشعوذين من كوارث وفواجع .

وانا لا ارغب في ان يسمعني فقط ذلك العدد القليل من الرجال والنساء الذين لا تزال كلمتا الامانة والشرف الفرنسيين تحتفظان عندهم بكل معناهما ، ولذلك فسوف أمر سريعاً بالمظهر الخلقي للقضية . ان من الحرب المشروعة الاستيلاء على الباخرة « اتوس » ، وان الرد ، في الحدود التي تسمح بها الدبلوماسية ، على العمليات التي يقوم بها الجزائريون عبر تونس ومراكش ، بالتسلل والدخول الى اراضي هذين البلدين — ان ذلك لا يشكل الا طعنات مُدى متبادلة في الاتفاقيات الرسمية او الصامتة . اما خطف زعماء اعداء هم من قلة الحذر بحيث يضعون انفسهم بين يدي أشخاص ينتمون الى الأمة التي يحاربونها ، فليس ذلك في تقاليد شعبنا ، ولاشك في ان رؤساء حكومة ، في ظروف خير من هذه الظروف ، كانوا يرفضون قبول مثل هذا التصرف .

انني اريد ان اتحدث الى اولئك المواطنين الذين يضحكون ساخرين من هذه الأقوال ، والذين لا تهمهم الا النتيجة ، والذين يتناسون اننا ساوينا الثوار في « كيفية » الفظاعة ، واننا سبقناهم بمراحل من حيث « الكمية » ، والذين يؤكدون ان جميع الوسائل مشروعة « مع مثل هؤلاء الأشخاص ، على اي حال » .

*

لقد خطف عدة رؤساء من زعماء الثوار من غير مقاومة ، بينهم الزعيم العسكري الرئيسي بن بلة وأحد كبار القواد السياسيين محمد خيدر . ولو كان الأمر شيئاً آخر غير ثورة شعبية وغير حرب المقاومة ، لكان للعملية أهمية عسكرية لاشك فيها . فلا ريب في انها الآن ستزرع الاضطراب بضعة اسابيع في هيئة أركان حرب القاهرة وقد تجعلها اقل فعالية ، وان كان هذا امراً يحتمل الشك . ولكن اركان حرب القاهرة تفوق في قلة أهميتها بالنسبة للثورة الجزائرية اركان حرب لندن بالنسبة للمقاومة الفرنسية اثناء الحرب . ان غياب بن بلة لن يمنع المصريين ، الذين كانوا « أمس » شديدي الكرم في الحث والتشجيع بواسطة الراديو ، من تموين الجزائريين ، « اليوم » بالسلاح على نطاق واسع ، وهذا موقف متوقع ومنتظر ، نظراً لموقفنا من قضية قناة السويس . وان الاتصالات بين القاهرة والثوار هي صعبة جداً ، وان حرب الثوار هي من شدة الاستغناء عن التوجيهات الستراتيجية بحيث ان

الضرر الذي يلحق بالمقاومة الجزائرية ، (بسبب اعتقال بعض زعمائها) لا يمكن بأي حال ان يكون ذا شأن كبير . ذلك ان التنظيم المركز ليس هو الشيء الرئيسي الهام بالنسبة الى حرب رجال المقاومة ، وان زعماء جدداً لابد من ان يحلوا محل الزعماء المختفين . ومن جهة اخرى ، فان نفوذ الرجال الذي قبض عليهم ليس من القوة والتفرد بحيث يمكن للجماعات المسلمة ان تجد نفسها مشلولة بهذا الخطف : فليس في الجزائر رجل يتمتع بما يتمتع به بو رقيبة في تونس او محمد الخامس في مراكش ، وهكذا يكون الربح العسكري في هذه العملية هزيلا .

اما من الجهة السياسية ، فان النتيجة الاولى هي طعن العلاقات الفرنسية المراكشية والفرنسية التونسية طعنة قد لا تبرأ ابداً ..وجاهل بأصول التقاليد واللياقة العالمية من لا يعرف — مثل السيد غي موليه — انأخطر الطعنات المعنوية التي توجه الى المسلمين هي الطعنة الموجهة للضيافة . لقد كانت الطائرة الشريفية امتداداً للأرض المراكشية ، بل كانت امتداداً لقصر الرباط حيث دعا محمد الخامس الرؤساء الجزائريين تحت حمايته ، فانتزاعهم من الطائرة يعني انتزاعهم من يديه ، ويعني الاستهزاء بحمايته في الوقت الذي أخذ فيه على نفسه هذه المهمة امام ربه وامام شرفه وامام شعبه . وما كان الأمر ليكون أخطر وأفدح لو اعتقل السلطان نفسه . والواقع ان هناك ، في نظر مسلم اليوم كما في نظر فرنسي الأمس ، مماثلة بين الرجلين اللذين يطلق عليهما اسم « الضيف » : الذي يعطي الضيافة والذي يتلقاها . وقد ظهرت على الفور خطورة هذه الاهانة ، اذ أعلن الأضراب العام في مراكش ووقعت حوادث كثيرة . ولم يكن الغيظ في تونس ، حيث كان الناس ينتظرون الزعماء الجزائريين ،اقل منه في مراكش ، فقد كانت ردود الفعل متشابهة .

*

وقد يقال (وقد قيل بالفعل ، لا في اوساط الحكومة وحدها ، بل في اوساط يغلب فيها التعقل عادة) ان « موقف السلطان اذ يتلقى الرؤساء «العصاة » هو موقف عبر ودي. » ولكن ممن يسخر هؤلاء الذين يفكرون هذا التفكير ؟ وما هذا النفاق المفضوح ؟ اننا نريد ان نعرف حقاً : أما كانت الحكومة على علم بمساعي السلطان لبدء المفاوضة ؟ اولم تعبر علناً عن رضاها عن هذه المساعي ؟ اولم يكن وجود السلطان نفسه امراً لا غنى عنه للسيد موليه ليحافظ على وحدة حزبه بالذات ؟ اولم يأت مولاي حسن الى فرنسا ليناقش رئيس الوزارة والوزراء في القضية ثم عاد الى الرباط بنتائج مباحثاته؟ أولم يتلق السلطان من حكومة موليه السماح بالتوسط او على الأقل بسبر الغور ؟ فاذا كان هذا كله صحيحاً ، فكيف يستطيع محمد الخامس ان يضطلع بمهمته التي هي على درجة عظيمة من الأهمية بالنسبة لفرنسا وللمغرب كله ، بغير التشاور مع قادة الثورة الجزائرية ؟ ام لعل وزارة الخارجية الفرنسية تعتقد انه كان بوسعه ان يقوم بذلك بواسطة « التلباثي » في اثناء صلاة الفجر ؟ .. ويقول بعضهم : « ان ما يؤخذ على السلطان ، لا الاجتماع بالقادة ، بل ما احاط به هذا الاجتماع من احتفال . » لقد كان اجدر بالسلطان ، من غير شك ، ان يتنكر بثوب امرأة وان يستقبل زائريه في زاوية من القصر! ولا ريب ان ذلك كان وسيلة طيبة لاعداد القادة الجزائريين اعداداً حسناً في صالح الوساطة والمصالحة !

ولكن لماذا نناقش هذه الترهات ؟ لنكن واقعيين في اجابة « الواقعيين» . فاذا كان اعتقال الزعماء الجزائريين قد تم جواباً على « عدم لياقة » السلطان في الاحتفاء بهم ، فيكفي من أجل تقدير ذكاء الجواب ان نقيس من جهة أهمية استقبال الرباط لهم ، هذه الأهمية التي سرعان ما نسيت ، ومن جهة اخرى التحالف الكامل بعد الآن بين مراكش وتونس في تأييد قضية الثوار الجزائريين . ولا حاجة للانسان لأن يكون نبياً عظيماً ليتنبأ بأن ماسيجده الثوار الجزائريون بعد الآن في تونس ومراكش ليس هو مجرد مزار محايد ، بل هم سيجدون هناك حلفاً يزداد اخلاصاً لهم يوماً بعد يوم . ان عملية « الخطف » ستجر اتساع الحرب في المغرب كله ، وستدفع العلاقات بين فرنسا من جهة وتونس ومراكش من جهة اخرى الى ابعد حدود التوتر . واولى هذه الدلائل ان السلطان وبورقيبة قد تعلما ان من المستحيل الاطمئنان الى الفرنسيين ، فان طياري الشركة الشريفية حين اطاعوا اوامر موليه انما خانوا ثقة الحكومة المراكشية التي ينتسبون اليها في الوظيفة ، ويمكن التأكد من ان هذا الدرس القاسي لن ينسى ابداً . ان في تونس ومراكش الوف الموظفين والاختصاصيين الابرياء المخلصين للبلاد التي يخدمونها ، وهم منذ الآن مهددون بالتعرض للشك والريبة ، وان الوفاً من الوظائف الفرنسية في الحياة المراكشية والتونسية ستحذف الآن . ولن تنسى كذلك سابقة الطيران الشريفي في بلاد اخرى من افريقيا ومن اقطار مؤتمر باندونغ .

*

على ان الغلطة التي ارتكبت في حق الشعب الفرنسي والتي ينبغي الا تغتفر قط ، انما ارتكبت على صعيد اسمى وبطريقة مباشرة . ان المفاوضات في الجزائر الآن ، ومن ثم قيام السلم ، هما الآن في خطر شديد . فمن جهة لا يستطيع الثوار ان يدعوا العملية تمر من غير ان يردوا أعنف الرد ، وسيضاف الى الحنق الذي أثارته طريقة الخطف رغبة الثوار في اظهار ان هذا العمل لم يؤثر على روح القتال والمقاومة عندهم . ومن جهة اخرى فان بن بله مثلا ، وهو اكبر القواد العسكريين ، كان كذلك احد اولئك الذين كانت افكارهم السياسية اكثر الافكار واقعية واعتدالا. لقد كان بن بلة الساعد الأيمن لفرحات عباس ، وبفضل مساعدته وتدخله تمكن فرحات عباس من انكار عبارة « نقل الحرب الى فرنسا نفسها » التي أضافها بعض المتطرفين الى نص تصريحه في المؤتمر الصحفي الذي عقد منذ حين في القاهرة . ان الطريق الآن مفتوحة تماماً امام المتطرفين ، بسبب الخطف الأحمق والفضيحة التي سيثيرها .

واخيراً ، فان عملية « الخطف » تثبت بصورة قاطعة للفرنسيين وللجزائريين وللرأي العالمي كله ان الحكومة الفرنسية لا ترغب في المفاوضات ، بالرغم من تصريحاتها وتأكيداتها الواضحة . لقد « تصنع » المسيو موليه انه أهتم ، في نيسان الماضي ، بمهمة الشخص الذي حمل له (بلا جدوى) قبول المفاوضات المباشرة بدون شرط من قبل قادة المفاوضة . و « تصنع » انه كلف — بمهمة السر — كلا من غورس وبيغارا في القاهرة وكومان في روما . و « تصنع » قبول وساطة بو رقيبة وسلطان مراكش . تصنع ذلك كله طوال الوقت الذي استطاع فيه ان يخدع الرأي العام الفرنسي . ولكن حين اقترب موعد المفاوضة وأصبح لا مفر منها ، وحين سارت الوساطة في طريقها المرسوم ، وحين بدا انه لم يبق ثمة وسيلة لتفادي الصلح ، اذ ذاك ادخل السيد موليه الشعوذة في طريق الحكومة والغى كل امكانية للحوار بخطف المفاوضين.

والأمر سواء اذا كان المسؤول السيد موليه او السيد لاكوست . فبين الذي يفعل وبين الذي يتيح الفعل ، يقوم فرق في الجرأة ، لا فرق في المسؤولية . من المؤكد ان وراء القضية رجال الحرب .. وان وجود المعدات العسكرية الفرنسية في تونس ومراكش يكفي للدلالة على ان كل شيء كان مهيأ ، وان رد فعل هذين البلدين كان متوقعاً ، بل كان مأمولا ومرجواً ، ولكن ما يفيدنا ان نعرف اذا كان المسيو غي موليه الضالع الواعي لرجال الحرب ، او كان منفذ اوامرهم ؟

*

والآن ينبغي للفرنسيين ان يعرفوا انهم محكومون برجال هم على اتم الاستعداد للحؤول دون انتهاء الحرب . فعلى الوزراء والنواب ان يضطلعوا بمسؤولياتهم . لقد تأخر السلام الآن اشهراً طويلة ، وستزداد الصعوبة في اية مفاوضة ، ولن يمكن تفادي عدد غير قليل من الموتى . والحق ان الوفاً من الفرنسيين والجزائريين قد قتلوا يوم ٢١ تشرين الاول ، كما لو انه حكم عليهم بالاعدام شنقاً فهل يستقيل الوزراء « الأحرار » ؟ ان الوزراء الذين سيبقون في الحكومة غداً ، والذين سيؤيدونها ، سيعينون المعسكر الذي هم فيه وما يريدون ومالا يريدون .

صحيح أن هذا الرئيس المدهش قد اخترع شعوذة اخيرة ، فهو قد أعد حجة جديدة امام الذين يثقون بشرفه ، بعد اكتشاف كل خديعة يقوم بها ، فيتيحون له ان يواصل الاعيبه. انه يهمس في اذن انصار المفاوضات انه انما امر بأسر قواد الثورة .. ليأتي بهم الى باريس ويضعهم تحت تصرفه من أجل المفاوضة « كما كان الأمر مع بورقيبة ». وان الشجاعة السياسية التي اظهرها المسيو موليه في الماضي تحدثنا عما اذا كان صادقاً في هذا الكلام من أجل المستقبل . ان عملية كهذه تحتاج الى غيره ، ولكن يكفيه هو ان يتحدث في الأمر ليرد الثقة الى المخدوعين الذين يرتضون الخداع ، وليتابع برضاهم هذه الحرب التي نتمنى الآن لو انها قد انتهت .

إن الأمور واضحة تماماً بعد الآن لعيون الشعب الفرنسي. إن السلام في الجزائر ينبغي ان ينتزع انتزاعاً من هذه الحكومة او ينبغي الحصول عليه ، في الارجح ، من حكومة اخرى ، بعد ان يكون قد طرد هذه الحكومة القائمة . ان النزاع كبير بين الاغلبية البرلمانية والشعور الشعبي . ولكن الشعور الآن لا يكفي . لقد كفى المواطنين ما ابدوه من ثقة وأمل وانتظار وشكوى . يجب الآن ان يعملوا بسرعة. ان الحكومة والأغلبية البرلمانية لا يستطيعان شيئاً ، وانما يستطيع كل شيء مواطنون مناضلون وقوى شعبية عاملة — بما في ذلك تغيير الحكومة . إن الساعة مؤاتية في فرنسا ، وفي اي مكان آخر ، للعمل والتجمع . وليس هذا اوان الأمل او الشكوى . انه اوان التقرير ، وان الفرنسيين يملكون مصيرهم في ايديهم .

ترجمة « الآداب »

كلود بورديه